التداعيات التراثية في الرسائل التهكميّة لدى الجاحظ وابن زيدون

أحمد محمد الجرم – جامعة مصراتة – ليبيا
a.ajarem@art.misuratau.edu.ly

مُلَّخصُ:
الرسائل الأدبية الغرض منها توصيل رسالة إلى المتلقي، ولكن قد يكون لها غايات أخرى غير مباشرة تؤديها، وهي تستعمل للتحذير والتهديد وتصل أحيانا إلى درجة التهكم المقذع والاستهزاء وذلك ينطوي على أسباب نفسية، أو علاقات اجتماعية، أو سياسية. فعلاقة المنافسة على المنصب والتفاخر به كان سبب خصومة الجاحظ مع ابن عبد الوهاب، بينما التنافس على الحب سبب العداوة بين ابن زيدون ومنافسه ابن عبدوس على ولاّدة بنت المستكفي، واستعمل كلا الأديبين هذا الجنس الأدبي وهو أدب الرسائل، لتوصيل رسالة مبطّنة بالتهكم والسخرية والاستهزاء. ومع أن هناك فارقا زمنيا بين الكاتبيْن إلا أن ابن زيدون تأثر بسابقه، وحاول أن يتجاوزه في بعض النواحي بإبداعاته وصوره ولوحاته الفنية، فكانت هناك أوجه تلاقي وأوجه افتراق بينهما حاولت في هذا البحث بيانها، سواء ما يتعلق بالجوانب الشخصية للكتّاب، أو طبيعة الرسائل ومناسباتها، أو كيفية سرد الأحداث والوقائع، واستدعاء الشخصيات التراثية فيها. وتناول البحث الإطار الشكلي للرسائل، وبيان طريقة الاقتباس والتضمين فيها، مع ذكر البناء العام لكلا الرسالتين، ومدى ظهور الراوي أو السارد في الرسالة، والدافع لذلك، مع بيان الأساليب البلاغية والدلالية والبديعية في سبيل إيصال الفكرة إلى المتلقي في أوضح صورة، كما أنها مجال لعرض الثقافة والمعرفة والفكر.

الكلمات المفتاحية: عبدوس، ولاّدة، السخرية، التهكم، التدوير.

المقدمة:

إن الاتصال لا يكون إلا بين مرسل ومتلقي، وبينهما رسالة يريد أن يوصلها المرسل إلى المتلقي لينقل له خيرا أو يثير لديه فكرا أو يحرك فيه عاطفة وبشرا، ولكن مناحي البلاغة عجيبة، وأساليب الكتّاب غريبة، والمقاصد والغايات مريبة، فكانت رسالة ابن زيدون التهكمية التي صاغها على لسان محبوبته ولاّدة، مرسلا إياها إلى خصمه وغريمه الوزير ابن عبدوس الذي سعى للتقرب من الأميرة ولاّدة ليرتبط بها ويتزوّجها بعد انبهاره بجمالها، وحلاوة لسانها، وحسن تدبيرها، وحصافة عقلها وتفكيرها.

ولمّا كانت هذه الرسالة تهكمية، وعدّها كثير من الدارسين هزلية، على الرغم مما يكتنفها من العلوم والمعارف، وما بثّه فيها من معرفة بالتواريخ والسير، واستدعاء لشخصيات المشاهير من العلماء والحكام، والقادة والأقران، فهل هذا النمط من الرسائل من نتاج الأندلس ومغربها؟ أو كان كاتبه متأثرا فيه بكنوز الشرق ومعارفه وثقافته؟ ومرجعه في ذلك سيد البيان والتبيين، وصاحب التصانيف البديعة والثقافة الوارفة الظليلة، أبو عمرو محبوب بن بحر الجاحظ. صاحب رسالة التربيع والتدوير التي نسجها في التهكم والسخرية من أحد كتّاب الوزير ابن الزيات وهو أحمد بن عبد الوهاب، لتطاوله على الجاحظ والتقليل من شأنه ومقداره، فكانت رسالته الساخرة التهكيمة، لذا كان لزاما عقد مقارنة بين الرسالتين ومقدار ما تأثر به ابن زيدون، وما أضافه من أساليب، وتنوّع في طريقة التفكير والتصوير، فشرعت في هذا البحث محاولا بيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين أديبين عظيمين أحدهما من المشرق العربي والآخر من مغربه. وكانت هناك دراسات سابقة درست هذه الرسائل وشرحتها، ولكن منفصلة كل منها في مجالها، مثل: السخرية في أدب الجاحظ لعبد الحليم محمد حسن، الفكاهة في الأدب الأندلسي لرياض قزيحة، ملامح التجديد في النثر الأندلسي لمصطفى السيوفي ومع ذلك فهي نادرة، ولا توجد – فيما أعلم – دراسات تناولت هذا الموضوع كدراسة موازنة بين الجاحظ والمتنبي في الرسائل التهكمية. ولدراسة هذا الموضوع قسّمت البحث إلى ثلاثة مباحث أساسية:

الأول: الزمن والمناسبة والغرض؛

الثاني: انعكاس شخصية الكتّاب في الرسالة والبناء العام للرسالة؛

الثالث: مقاربة لبيان أوجه الاتفاق والاختلاف بين الرسالتين.

وعلى هذا الأساس انتهجت المنهج التاريخي المعتمد على التحليل والاستقراء، مع الاستعانة بنظريتي السرد والقراءة لمعرفة الخصائص التي تميّز كلا من الرسالتين، من خلال مجموعة من الأطر الاجتماعية والثقافية والحضارية.

1. الزمن والمناسبة والغرض:

2.1. زمن الرسائل

المراد بالزمن: الفترة الزمنية التي ألفت فيها رسالتي الجاحظ وابن زيدون في إطارهما التاريخي والسياسي؛ وأما المناسبة فهي تتعلق بالأسباب الكامنة وراء إنشاء هاتين الرسالتين، وأما الغرض فالمراد به في أي غرض أدبي كتبت هاتان الرسالتان؟

فالفترة الزمنية لكتابة هاتين الرسالتين، فإن رسالة التربيع والتدوير: هي أولى الرسالتين، وأول رسالة في الأدب تصور نموذجا إنسانيا، ومع أنها ظهرت في

المشرق فهي أول رسائل الجاحظ دخولا إلى الأندلس، حيث دخلت في وقت مبكر، وكان ذلك في حياة الجاحظ نفسه، وأوصلها إلى الأندلس تلميذه سلاّم بن زيد المكنّى بأبي خلف، الذي صحب الجاحظ حوالي عشرين عاما، وكانت تعرف برسالة الطول والعرض، كما تعرف برسالة التربيع والتدوير، ورسالة الفكاهة، وصف الجاحظ فيها أحمد بن عبد الوهاب بأنه مربع ومدوّر[1].

"إن هناك من الأسباب ما يحمل على الاعتقاد بأن ابن زيدون لم يكتب رسالته الهزلية إلا بعد وصول رسالة التربيع والتدوير إلى الأندلس"[2]. فبمجرد وصول رسالة الجاحظ إلى الأندلس اطلع عليها الأدباء والكتاب كما هو دأبهم في تلقف كل ما يصدر عن المشرق من كتب ورسائل ومؤلفات، ومن هؤلاء ابن زيدون الذي أعجب بها وحاول أن يقتفي أثرها ويحذو حذوها في كتابة الرسائل، وهذا يدل على اطلاع ابن زيدون على رسالة الجاحظ، وتأثره بها، كما أنّ الرسالتين لم يكتبا في زمن واحد، للفارق الزمني بين الكاتبين؛ لأن ابن زيدون ولد بعد وفاة الجاحظ بمائة وتسع وثلاثين سنة تقريبا.

3.1. مناسبة الرسائل

أما مناسبة الرسالتين فإن الباعث على كتابة رسالة التربيع والتدوير للجاحظ هو دافع شخصي؛ فقد اعتدّ أحد الكتّاب وهو أحمد بن عبد الوهاب بنفسه حتى طاول الجاحظ في الكتابة، ولمّا نفد صبر الجاحظ، ولم يعد باستطاعته احتماله، أنشأ هذه الرسالة لكي يوقف تطاول أحمد بن عبد الوهاب عليه[3]. وربما السبب في ذلك يعود إلى أن أحمد بن عبد الوهاب كانت له منزلة رفيعة ومكانة سامية في ذلك الوقت، مما جعله يحتل مركزا مرموقا في قلوب الخلفاء والأمراء؛ وهذا مما أثار الغيظ في قلب الجاحظ، وأوقد نار الغضب لديه، فقد كان الجاحظ يرى نفسه دائما في غير مكانها اللائق بها، ولولا تقلبات الدهر عليه بسبب فقره لكان خليفة للمسلمين، ومحمد بن عبد الملك الزيات يأتمر بأمره ويعمل تحت يده.

امتلأ قلب الجاحظ بكُرْه جميع الكتّاب لأنه يراهم دونه، وكان لابن عبد الوهاب من تلك الكراهية أوفر نصيب، عبّر عنها الجاحظ برسالة خصّه بها، بسبب تباهيه بنفسه واغتراره بمنصبه، وأنه فوق الجاحظ مكانة، كما أنّ يد الجاحظ لا تطوله، فعاب وهزأ به وهجاه، كما عارض مذهبه الكلامي، مستغلا في ذلك منصبه ونفوذه وصحبته كبار رجال الدولة، وكثُر منه ذلك حتى ضاق به الجاحظ ذرعا بعد طول

[1] ينظر: فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 427.
[2] إحسان عبّاس وآخرون، دراسات في الأدب الأندلسي، ص: 24.
[3] ينظر: علي أبو ملحم، مجموع رسائل الجاحظ الأدبية، ص: 8.

اصطبار، فألف فيه رسالته[4]. وأرى أن الجفوة التي حصلت بين ابن الزيات والجاحظ جعلت ابن عبد الوهاب يستغلها في التقرب من ابن الزيات من جهة، وليزداد قربا من الخليفة من جهة أخرى، وهذا الفعل ربما جعل الجاحظ يتألم كثيرا له، لأنه حلّ مكانه، وكان ذلك سببا في إنشاء رسالته كما أسلفنا، وهذا الموقف يذكّرنا بابن زيدون في الأندلس للاتفاق بينهما في كتابة رسالتيهما، فالجاحظ كان مصدر إلهام لابن زيدون أكثر من كونه أستاذا له في التعبير، واتفقا في أن كلا منهما كتب رسالته لشخص استغل الجفوة التي أحدثت شرخا في العلاقة بين الجاحظ وابن الزيات في المشرق وبين ابن زيدون ومحبوبته ولاّدة في الأندلس. فابن زيدون كتب رسالته الهزلية التهكمية في الوزير ابن عبدوس الذي طمع في التقرب من ولاّدة بنت المستكفي، بعد أن أوفد إليها امرأة من جهته تستميلها إليه، بينما الجاحظ كتب رسالته في أحمد بن عبد الوهاب لأنه حاول التقرب من ابن الزيات، ولكن اختلفا في الهدف.

ولو تتبعنا النتائج التي تحققت من كتابة هذه الرسائل لتبين لنا أن ابن زيدون عند كتابته لرسالته لم يحقق غايته منها، فهي لم ترجع له ولاّدة ولا استطاع النيل فيها من خصمه ابن عبدوس؛ بل ازداد غضب ولاّدة من ابن زيدون وازدادت تقربا من ابن عبدوس، لما تحتويه الرسالة من ألفاظ نابية من جهة، ولأنه تكلم على لسانها دون إذنها من جهة أخرى، لكن الجاحظ حقق هدفه حيث لم يتجرّأ أحمد بن عبد الوهاب على الجاحظ بعد هذه الرسالة.

4.1. طبيعة الرسائل

ولو رجعنا إلى طبيعة الرسالتين لوجدنا أن رسالة التربيع والتدوير للجاحظ قد جاءت في مقام السخرية من أحمد بن عبد الوهاب، وتمتاز بمسحة من المرح الذي ينشده الجاحظ في كتاباته، حيث سخر من قبح ابن عبد الوهاب وصوّره تصويرا كاريكاتوريا مضحكا، في الوقت الذي يمتحنه بمائة سؤال يطرحها عليه، ويطلب منه الإجابة عليها[5]، واستهلها بالبسملة التي أرجعها بعض الدارسين إلى النسّاخ الذين صدّروا بها الرسالة.

بينما رسالة ابن زيدون فجاءت تهكمية وليست هزلية كما وصفها بعض الدارسين، لأنها صدرت عن موقف غضب، ولأنه طغى عليها طابع التهكم الشديد من خلال إطلاق الألفاظ التهكمية مباشرة، وذلك ردّا على ابن عبدوس الذي حاول التقرب من محبوبته ولاّدة مما خلق لديه نوعا من الاحتقان الداخلي، ضاق الشعر

[4] ينظر: عبد الحليم محمد حسن، السخرية في أدب الجاحظ، ص: 189-195.
[5] ينظر: علي أبو ملحم، مجموع رسائل الجاحظ الأدبية، ص: 8.

عن استيعاب الموقف فلجأ إلى الكتابة نثرا- وهذا مما يتفرد به ابن زيدون في كتاباته – إذ انفجر فجأة في ابن عبدوس قبل أن يأتي بالمقدمة الضرورية لعادة الرسائل، مما يدل على غضبه وانفعاله.

5.1. أغراض الرسائل

وبالنظر إلى الغرض الذي أنشئت بسببه الرسالتين يتبين أن الجاحظ أراد أن يلقّن أحمد بن عبد الوهاب درسا في احترام العلم والعلماء، وعدم التطاول أو الاجتراء عليهم، فاندفع يسخر من ادعائه وجهله، ولم يرتض السب والشتم خطة كابن زيدون، بل عمد إلى السخرية والضحك، وذلك باصطناع وسائل شتى، منها: تعرية مهجوّه علميّا وكشف زيفه، بطرح سيل من الأسئلة عليه من أسئلة العلم والفكر التعجيزية[6]. ويرى إحسان عبّاس أن رسالة ابن زيدون قصد من كتابتها تحقيق غايتين: الأولى: معارضة للجاحظ في رسالة التربيع والتدوير، والثانية: عرض معارفه ونواحي ثقافته، وأن شخصية ابن عبدوس لم تأت في هذه الرسالة إلا لخدمة هذين الغرضين، كما يرى أن ابن زيدون لم يكن مهتما كثيرا بأن تجد الرسالة طريقها إلى الشخص المهجو فيها، وإنما كان يرسم نموذجا أدبيا يدل على مقدرته واتساع معارفه[7]. وهذا لا يمنع أن تكون هناك أغراض أخرى غير هذين الغرضين، اللذيْن ربما تحققت نسبة كبيرة منهما، في الوقت الذي لم تتحقق فيه بقية الأغراض - كما تقدم - فلا الرسالة نالت من ابن عبدوس بالقدر الذي أراده العاشق، ولا هي أعادت إليه ولاّدة، بل زادت من قطيعتها له[8].

2. انعكاس الشخصية للكاتب والبناء العام للرسالة

1.2. انعكاس الشخصية

شخصية الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير هي شخصية الناقد والمفكر المعتزلي، وهذه إحدى الميزات التي امتاز بها الجاحظ في رسائله كافّة. ففي هذه الرسالة استطاع الجاحظ أن يبلغ من صاحبه ما يريد، وأن يُضحِك القارئ عليه من غير أن يثير في نفسه شفقة، أو يشعر بحقد دفين أو تحامل ظاهر؛ أما ابن زيدون فقد أشعر القارئ بما تنطوي عليه نفسه من بغض لصاحبه، وأثار في نفسه الشفقة عليه، بسبب تحامله الصريح وشتمه المكشوف.

فالفرق هو اختلاف شعور ابن زيدون ونفسيته عن شعور الجاحظ ونفسيته؛ فقد كانت الخصومة بين الجاحظ وصاحبه في حدود الرأي والعقل، بينما ابن زيدون

[6] ينظر: فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، ص: 428.
[7] ينظر: إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص:154.
[8] ينظر: مصطفى الشكعة، الأدب العربي في الأندلس: موضوعاته وفنونه، ص:608.

فقد كانت الخصومة تتصل بالعواطف وتمس شغاف القلوب والمشاعر[9]، ولا شك أن ثورة العواطف أعنف وأقوى من ثورة الرأي والعقل. ويرى عبد العزيز عتيق أنه "توجد صلة بين الرسالتين، ووجه الاختلاف يكمن في أن رسالة ابن زيدون أدقّ وأوسع، وهي تدلّ على علم واسع بأحداث التاريخ، وقدرة في التهكم الصريح على ابن عبدوس منافسه في الحب والسياسة"[10]. ومن الدارسين من يرى أن "هذه الرسالة تدلّنا على قوة عارضته، وحضور بديهته، وحسن تصرفه"[11]، وهناك من أضاف أن "ابن زيدون قد وفّق في السيطرة على عقول القراء، فما استشعروا معه الملل والاستهجان"[12].

ومن الملاحظ أن شعر ابن زيدون غنائي يدور حول ذاته، لذا أخفق في نظرته إلى خصمه، إذ لم يتجاوز شخصيته في النظر إلى قضيته؛ أما الجاحظ فإنه مفكر يدور أدبه حول الموضوعات التي تشغل ذهنه، وكان يهمه الناس بالدرجة الأولى، لذا فهو قليل الاستغراق في نفسه، ويتعامل مع قضيته بعيدا عن الذاتية محولا مشكلته من مشكلة ذاتية إلى مشكلة فلسفية، كما أنه لا يستشهد كثيرا بالشعر في رسالته التربيع والتدوير مقارنة بابن زيدون الذي استشهد بالشعر وحوّله من منظوم إلى منثور، وبالعكس كذلك، وذلك بحكم كونه شاعرا، وهذه خاصيّة امتاز بها ابن زيدون[13].

وكانت انفعالات الجاحظ في رسالته قليلة نسبيّا، ممزوجة بالفكاهة والرسم الكاريكاتوري المضحك؛ بينما ابن زيدون في رسالته التهكمية قد أذهبت اتّزانه النفسي بالكامل، مما جعله يرمي ابن عبدوس بألفاظ مقذعة جارحة قمّة في التهكم، كما تناولها بمنتهى الجدّيّة.

2.2. البناء العام للرسالتين

من حيث الشكل جاءت رسالة الجاحظ أكثر طولا من رسالة ابن زيدون، وذلك يرجع إلى ثقافة المتكلم، فالجاحظ دائم السؤال والتحليل والمناظرة، لذا قسّم الجاحظ رسالته إلى فصول، كما توجه بخطابه مباشرة إلى أحمد عبد الوهاب؛ بينما رسالة ابن زيدون أقصر من سابقتها فلم يحتج الأمر إلى تقسيمها إلى فصول، وأجرى خطابه على لسان ولاّدة. ويقول طه حسين مفاخرا برسالة الجاحظ: "ويكفي جدا أن

[9] ينظر: سالم عبد الرزّاق سليمان، ترسّل الشعراء في الأندلس، ص:91.
[10] عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، ص:464.
[11] حسن جاد حسن، ابن زيدون، ص:302.
[12] مصطفى السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ص:453.
[13] ينظر: إحسان عبّاس وآخرون، دراسات في الأدب الأندلسي، ص:143.

ننظر في رسالة التربيع والتدوير، التي يهجو بها الجاحظ أحمد بن عبد الوهاب، نجد هذه الرسالة طويلة، مائة وخمسين صفحة، وهي من أولها إلى آخرها هجاء وهجاء"[14].

بدأت رسالة ابن زيدون التهكمية بمقدمة بتراء بلفظ (أما بعد) دون بسملة أو حمد، فيقول: "أما بعد؛ أيها المصاب بعقله، المورّط بجهله، البين سقطه، الفاحش غلطه، العاثر في ذيل اغتراره، الأعمى في شمس نهاره، الساقط سقوط الذباب على الشراب، والمتهافت تهافت الفراش في الشهاب، فإن العجب أكذب، ومعرفة المرء أصوب"[15].

يرمي ابن زيدون خصمه ابن عبدوس بـ(التهافت) وهو وصف دال على الحال، وقد عمد إلى التصريح والمجاهرة، وأظهر عيوب خصمه بصورة تهكمية مقذعة، مستمدا تهكّمه من عيوبه الجسمية والفكرية حيث وصفه بالجنون والجهالة. أما الجاحظ فيقول: "كان أحمد بن عبد الوهاب مفرط القصر ويدّعي أنه مفرط الطول، وكان مربّعا وتحسبه لسعة جفرته واستفاضة خاصرته مدوّرا، وكان جعد الأطراف، قصير الأصابع، وهو في ذلك يدّعي البساطة والرشاقة، وأنه عتيق الوجه، أخمص البطن، معتدل القامة ..."[16].

انعكست روح الجاحظ المطبوعة على الدعابة والهزل على طريقته في السخرية من خصمه، فالتفت بحاسته الوقّادة في الفقرة السابقة إلى عيوبه الخَلْقيّة، والجسمية الظاهرة، وتصادف أن أحمد بن عبد الوهاب كان مربّعا مدوّرا، مفرط القصر، والصورة الكاريكاتورية هي الصورة التي تهدف إلى مسخ شخص أو شيء، وتشويه شكله وواقعه الذي هو عليه والقصد منه السخرية والإضحاك، فوجد الجاحظ النموذج الكاريكاتوري الجاهز، وعمد إلى إظهار تلك العيوب في صورة الهزل، كما اعتمد الجاحظ على أساس المفارقة أو التضاد بين مكوناته الخلقية مع الاستعانة بعناصر أخرى كالتضخيم والتلفيق، والمبالغة مما يتوصل بها إلى السخرية والإضحاك[17]. وبالنظر للبناء الفني للرسالة نجد أن رسالة التربيع والتدوير تقع في ثلاثة أقسام رئيسة: مقدمة طويلة – صلب الرسالة – خاتمة طويلة

في الرسالة التهكمية لابن زيدون نجد التصميم في البناء يكاد يكون مفقودا، لأنه اعتمد على التلقائية التامة في كتابة رسالته، وربما تميل إلى الجانب القصصي[18].

---

[14] طه حسين، حديث الشعر والنثر، ص:56.
[15] علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون، ص:635.
[16] علي أبو ملحم، مجموع رسائل الجاحظ الأدبية، ص:431.
[17] فوزي عيسى، الآدب الأندلسي، ص:430.
[18] ينظر: إحسان عبّاس وآخرون، دراسات في الأدب الأندلسي، ص:16،15.

الجاحظ لم يذكر نفسه في الرسالة إلا بشكل عارض، وهو يعدّ ساردا بمعايير النقد الحديث، وكأن عمرو بن بحر شخصية أخرى غير شخصية المؤلف، لذا تم إدراج اسمه مع بقية شخصيات الرسالة؛ حيث ذكر مرّتين، مرة في نهاية الرسالة، والأخرى عند قوله: "وأشهد أنك ستخاشن عمرو بن بحر وتعاقله، ثم تظافره وتطاوله، وتغنّي مع مخارق وتنكر فضل زرزور"[19]. وفيما عدا ذلك فإنه كان السارد.

وقد حاول ابن زيدون أن يحتذي حذو الجاحظ لكنّه أخفق في أين يكون ساردا أو راويا وإنما وضع نفسه ضمن شخصيات الرسالة؛ فقد مدح نفسه على لسان ولاّدة تعريضا لا تصريحا، كقوله: "ولعلّك ما غرّك ما علمتَ صبوتي إليه، وشهدتَ مساعفتي له، من أقمار العصر، ورياحين المصر، الذين هم الكواكب علوّ همم، والرّياض طيب شمم.

من تلق منهم تقل لاقيت سيّدهم مثل النجوم التي يسري بها الساري"[20].

وتحدّث في موضع آخر عن نفسه، موجّها خطابه لابن عبدوس قائلا: "وهبْك ساميتهم في ذروة المجد والحسب، وجاريتهم في غاية الظرف والأدب، ألست تأوي إلى بيت قعيدته لكاع؟"[21]. وعند تحليل رسالة التربيع والتدوير نتبيّن أن الجاحظ عمد إلى تقسيم الجمل إلى فقرات مقفاة، والاستطراد، ومزج بين الجدّ والهزل، والاعتراض بالجمل الدعائية والتضمين، إضافة إلى الجانب الموسيقي، والجدلي والنقدي، والقصصي والتهكّمي، والسجع والازدواج. ويرى أحمد أمين في رسالة التربيع والتدوير أن الجاحظ استطاع "أن يجعل لها موضوعا علميّا، بل لعلّها أحسن رسائله لمن شاء أن يعرف أي الرسائل العلمية والعقلية، والأدبية، والفلسفية التي جاء بها الجاحظ"[22]. بينما عند تحليلنا للرسالة التهكّمية لابن زيدون تبيّن أنه عمد إلى البناء المتوازي لتكثيف المعنى الذي يريده وترسيخه، كما أن استخدام أسلوب القصر يعطي قيمة بلاغيّة ودلاليّة تضاف إلى معانيه وصوره، إضافة إلى ظاهرة التقديم والتأخير، وأساليب الشرط، والقسم والاستفهام والنداء، وخاصّيّة التناص القرآني، والشعري، والتاريخي، والسجع والتضمين، والجناس والتشبيه[23].

---

[19] علي أبو ملحم، مجموع رسائل الجاحظ الأدبية، ص:442.
[20] علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون، ص:668.
[21] المصدر نفسه، ص:673.
[22] أحمد أمين، ضحى الإسلام، 129/3.
[23] ينظر: سالم عبد الرزّاق سليمان، ترسّل الشعراء في الأندلس، ص:326-479.

3. نقاط الاتفاق والاختلاف

1.3. أوجه المشابهة

لو تتبعنا أوجه التشابه بين الرسالتين لوجدنا أنهما حفلتا بفيض غامر بذكر الأعلام الذين اكتسبوا شهرة في التاريخ بصفات قصرت عليهم، وشرب المثل بهم في إحدى هذه الصفات أو أكثر من صفة، إلا أن الجاحظ ينسب القول أو المثل أو أبيات الشعر إلى أصحابها، وليس كذلك عند ابن زيدون؛ فهو يتمثل بالأقوال والأمثال أو آي الذكر الحكيم، ويَسْبِك ذلك بقوله، ويضفي عليه من شخصيته، وكأن الجميع من صُنع ابن زيدون[24].

كما أعجب ابن زيدون بأسلوب المبالغة الذي اتبعه الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير، فسار على نهجه ليتهكم من ابن عبدوس. نلحظ ذلك من خلال هذين المقطعين اللذين أوردناهما على سبيل التمثيل، يقول الجاحظ مخاطبا أحمد بن عبد الوهاب: "لقد علمت – حفظك الله – أنك لا تحسد على شيء حسدك على حسن القامة وضخم الهامة، وعلى حَوَر العَيْن وجودة القد، وعلى طيب الأحدوثة والصنيعة المشكورة ... وأنت تزعم أن هذه المعاني خالصة لك، مقصورة عليك، لا تليق إلا بك، ولا تحسن إلا فيك"[25].

ويقول ابن زيدون مخاطبا ابن عبدوس: "حتى خلت أنّ يوسف عليه السلام حاسنك فغضضت منه، وأنّ امرأة العزيز رأتك فسلت عنه ... وكسرى حمل غاشيتك، وقيصر رعى ماشيتك، وجُذيمة الأبرش تمنّى منادمتك ... ومهلهلا إنما طلب ثأره بهمّتك، والسموأل إنما وفّى عند عهدك، وحاتما إنما جاد بوفرك"[26].

الجاحظ يميل في كتاباته إلى الترسّل غير المقيّد، في الوقت الذي يلتزم فيه ابن زيدون بالسجع ويكاد يكون مطلقا، وبشكل عام يَرِد السجع عند كليهما من غير تكلّف أو تصنّع، وثقافة ابن زيدون تتركز على ذكر الأعلام وما برعت فيه أو اتصفت به، فكان يبرز مقدرته الثقافية في أسلوبه التهكمي من ابن عبدوس، بينما نجد صدى لثقافة الجاحظ في تحديه لابن عبد الوهاب في إيجاد أجوبة لأسئلته التعجيزية.

والصورة المهيمنة عند كليهما، هي الصورة التي تواصل البقاء طوال عمل أدبي معين، وتجعل القارئ يتخيل صاحبها وطبيعته ما دام يقرأ، كصورة عبدالوهاب في التربيع والتدوير للجاحظ، وابن عبدوس في الرسالة التهكمية لابن زيدون.

---

[24] ينظر: مصطفى السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ص: 445،446.

[25] علي أبو ملحم، مجموع رسائل الجاحظ الأدبية، ص:433.

[26] علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون، ص:637.

2.3. أوجه المفارقة

1.2.3. أوجه المفارقة عند الجاحظ

– لم يسرف الجاحظ في هجائه لابن عبد الوهّاب ولم يمض فيه، بل صبغ قوله بروحه الفكاهية والظريفة تهكما مضحكا من المرسل إليه.

– يتمثل فضل الجاحظ وقدرته في نيله من صاحبه، وتحقيق كل ما أراده، مع إشراكه للمتلقي في السخرية من المرسل إليه دون شعور بالظلم أو بالقسوة عليه.

– استخدام الإشارات الثقافية عند الجاحظ في رسالته التربيع والتدوير بحيث يعرضها في صورة أسئلة عن الأمم البائدة، والقبائل، والتاريخ القديم، الأنهار والجبال، وأجناس البشر ... إلخ دون ترتيب للموضوعات، ومردّ ذلك عنده التمكّن الشديد من ناحية الفكر؛ فلا يخش التنقل من موضوع إلى آخر في الفقرة الواحدة[27].

2.2.3. أوجه المفارقة لدى ابن زيدون

– تحامل ابن زيدون على منافسه ابن عبدوس في حبٍّ ولاّدة، والمضيّ في ذلك جعله يصل إلى حدّ الحفيظة عليه، ومدعاة لضراوة الضغينة التي بينهما، وبخاصة أن مبعثها المنافسة في الحب.

– إن يكن ابن زيدون قد أسرف في ذكر الأعلام فلديه القدرة على الإحاطة بتاريخ الأمم والمشاهير من الشخصيات التراثية، ومما يلفت الانتباه أن ابن زيدون مارس الرسم بالكلمات، إذ استدعى تلك الشخصيات التراثية لشخص ابن عبدوس بحيث يخرجه في صور متنوعة بلغت فيها تلك الصفة مبلغا لم يبلغه صاحب الشخصية الأصلية إمعانا في التهكم والاستهزاء به.

– المعاني وإن تكن قليلة تدرّجت من الهجاء إلى الذّمّ فالتهكم ثم السخرية من ابن عبدوس، إلا أنه ليس فيها ما يدعو إلى الملل أو الاستهجان[28].

– استخدام الإشارات الثقافية عند ابن زيدون بصورة جليّة في أسلوب كتابته بحيث يعرضها بتتابع وتدفق مثل: الطقوس الدينية، تاريخ الإسلام، الفلسفة، الفلك، الطب، الكيمياء، الكلام، والموسيقا، وما أشبه ذلك.

3.3. الاقتباس والتضمين

تأثر ابن زيدون بأسلوب الجاحظ وطريقته في التصوير، وكان معجبا به أيّما إعجاب، فهو يضمّن كلامه آيات من القرآن الكريم، وأبياتا من الشعر، وعدد من الأمثال، كما فعل الجاحظ في رسالة التربيع والتدوير.

---

[27] ينظر: مصطفى السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ص:661-662.

[28] ينظر: رياض قزيحة، الفكاهة في الأدب الأندلسي، ص:446.

قال أبو عثمان: "فإنك لو أسرفت لقلنا: قد اقتصدت، ولو جرت لقلنا: قد اهتديت ولكنك تجيء بشيء: ﴿تَكَادُ السَّمَوَاتُ يَتَفَطَّرْنَ مِنْهُ وَتَنْشَقُّ الأَرْضُ وَتَخِرُّ الجِبَالُ هَدًّا﴾ [29]. الجاحظ ينسب النص إلى قائله، ويقدم آية من القرآن الكريم، ويكون الاقتباس لديه من جهتين، اتصال معنوي بالنص، وانفصال من التركيب الأسلوبي للعبارة.

وقال ابن زيدون: "... وذكرت أن الفرار من الظلم، والهرب ممن لا يطاق من سنن المسلمين، وقد قال تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿فَفَرَرْتُ مِنْكُمْ لَمَّا خِفْتُكُمْ﴾ [30]، فابن زيدون يختلف عن الجاحظ في تناوله للنص، ويظهر تفوقه في هذا الميدان، وينحو بأسلوبه إلى منعطف جديد مبتكر يختلف عن طريقة من سبقه، وهي أن طريقة ابن زيدون تكمن في الانسيابية، والإطالة، والتباعد بين الجمل، وتمنحه أصباغا نادرة تتصل بأقواله"[31].

وفي الرسالة الهزلية نجد أنها ذاهبة في هذا المنزع من تقليد رسالة التربيع والتدوير، "وليس ابن زيدون منفردا بالعناصر الثلاثة التي اعتمدها في رسائله، وهي الإكثار من الأمثال، وحل الشعر، والتلويح بالإشارات إلى الأشخاص والأحداث، فقد أضحت هذه العناصر سمة عامة لأكثر ضروب النثر الأندلسي في هذا العصر حتى تكاد تكون بعض الرسائل جمعا لهذه الأركان جميعا في نطاق واحد"[32].

الخاتمة

- فن الرسائل يعد من روائع الحضارة المشرقية واكتمال صورته في الحضارة الأندلسية.
- كتابات الجاحظ مثالا صادقا للحياة العلمية والفكرية، وله أفضال على كل من أتى بعده؛ لأنه خلق فنّا جديدا من الكتابة لم يُسبَق إليه.
- شخصية ابن زيدون هي أغنى الشخصيات الأدبية في عصر ملوك الطوائف والمرابطين، حيث انصهرت في نفسه كل ثقافات عصره، وكانت رسائله النثرية تكاد تكون شعرا بما تحمله من انفعالات الشاعر واهتياجه وغنائيته، بالإضافة إلى عمق تفكيره، ورحابة أفقه، وفيض معرفته.
- رسالة التربيع والتدوير هي أسبق في الظهور من الرسالة التهكّميّة لابن زيدون بسبب الفارق الزمني بينهما.
- رسالة التربيع والتدوير الدافع لكتابتها هو اعتداء أحد الكتّاب على الجاحظ، وأما الرسالة التهكّميّة فالدافع لكتابتها هو طمع أحد الوزراء التقرب من عشيقة ابن زيدون.

---

[29] سورة مريم، الآية 91.
[30] سورة الشعراء، الآية 20.
[31] مصطفى السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، ص:665.
[32] إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، ص:265.

- اتفقت الرسالتان في أن كلا منهما وجهت إلى شخص استغل جفوة.
- وجه الاختلاف في تحقق الهدف من الرسالة أن الجاحظ حقق غايته من كتابتها، أما ابن زيدون فلم يحقق الغاية من إنشائها.
- رسالة الجاحظ جاءت في مقام السخرية وغلب عليها طابع المرح، بينما رسالة ابن زيدون هي عمل إبداعي كتبت في مناخ نفسيّ محتدم الانفعال، كما طغى عليها طابع التهكم الشديد.
- كانت قضية الجاحظ مع خصمه في حدود الرأي والعقل، بينما ارتبطت قضية ابن زيدون مع خصمه بالعواطف والانفعالات.
- اختلفت الرسائل في الطول، مما أدى إلى تقسيم رسالة الجاحظ إلى ثلاثة أقسام، في الوقت الذي افتقدت فيه رسالة ابن زيدون لهذا البناء، واعتمد على التلقائية التامة.
- استخدم الكاتبان الاقتباس والتضمين والاستشهاد بالشعر، وفي استخدام السجع والصور البيانية.

المصادر والمراجع

- القرآن الكريم، برواية قالون عن نافع المدني.
- إحسان عبّاس، تاريخ الأدب الأندلسي: عصر الطوائف والمرابطين، دار الثقافة للنشر والتوزيع، 1996.
- إحسان عبّاس، وداد القاضي، ألبير مطلق، دراسات في الأدب الأندلسي، الدار العربية للكتاب، ليبيا- تونس، 1976.
- أحمد أمين، ضحى الإسلام، دار الكتاب العربي، بيروت، ط10، (د.ت).
- حسن جاد حسن، ابن زيدون، المطبعة المنيرية للنشر والتوزيع، 1955.
- رياض قزيحة، الفكاهة في الأدب الأندلسي، المكتبة العصرية للنشر والتوزيع، صيدا – بيروت، (د.ت).
- سالم عبد الرزاق سليمان، ترسّل الشعراء في الأندلس، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع، 2011.
- طه حسين، حديث الشعر والنثر، دار المعارف للنشر والتوزيع، ط12، 2004.
- عبد الحليم محمد حسن، السخرية في أدب الجاحظ، دار ليبيا للنشر والتوزيع، (د.ت).
- عبد العزيز عتيق، الأدب العربي في الأندلس، دار النهضة العربية للنشر والتوزيع، 1976.
- علي أبو ملحم، مجموع رسائل الجاحظ الأدبية، دار الهلال للنشر والتوزيع، بيروت، 1991.
- علي عبد العظيم، ديوان ابن زيدون، مكتبة نهضة مصر للنشر والتوزيع، 1957.
- فوزي عيسى، الأدب الأندلسي، دار المعرفة الجامعية للنشر والتوزيع، 2012.
- مصطفى السيوفي، ملامح التجديد في النثر الأندلسي خلال القرن الخامس الهجري، عالم الكتب للنشر والتوزيع، بيروت، 1405هـ.
- مصطفى الشكعة، الأدب العربي في الأندلس: موضوعاته وفنونه، دار العلم للملايين، بيروت، 1986.